العلاج بالفن
أسلوب علاجي ناجح
مع الأطفال

أ.د/ عادل كمال خضر
وكيل كلية الآداب ـ جامعة بنـها
لشئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة

إن العلاج النفسي يقوم أساساً على حوار يتم بين طرفين (مريض - معالج) ، هذا الحوار يتم غالباً من خلال تبادل الكلمات ، أي ينشأ حوار لفظي بين المريض والمعالج ، حيث يطلق المريض العنان للسانه كي يعبر عما يجول بخاطره من ذكريات وأحداث ومشاعر وانفعالات كأول خطوة نحو تحقيق الاستبصار بطبيعة مشكلاته والتعرف على أسبابها متقدماً نحو الشفاء . غير أنه في كثير من الأحيان نجد المرضى يتوقفون عن الحوار اللفظي ويلوذون بالصمت طوال الجلسة العلاجية ، وبالرغم مما في الصمت من لغة ، فإن الصمت الطويل خلال الجلسات المتعددة إنما يهدد عملية العلاج النفسي ويحول دون تقدمها ، بل قد يؤدي إلى فشلها ، كذلك فإن المرضى من الأطفال أيضاً لا تمكنهم اللغة من إقامة حوار يعكسون من خلاله طبيعة مشكلاتهم ومن ثم لجأ المعالجون النفسيون إلى وسائل أخرى يمكن الاستعانة بها لإقامة الحوار وتحقيق التواصل مع المرضى وخاصة مع الأطفال لعل أهمها في رأينا استخدام الرسم في العلاج النفسي ، سواء كعامل مساعد أو رئيسي في العملية العلاجية .

ويعد الرسم عمل فني تعبيري يقوم به الطفل ، وهو بديل عن اللغة ، وهو شكل من التواصل غير اللفظي ، وأيضاً شكل من أشكال التنفيس ، فالأطفال عن طريق الرسم يعكسون مشاعرهم الحقيقية تجاه أنفسهم والآخرين ، ومن ثم كانت الرسوم وسيلة ممتازة لفهم العوامل النفسية وراء السلوك المشكل ، وقد أثبتت الدراسات النفسية التحليلية للأطفال أننا نستطيع من خلال الرسم الحر الذي يقوم به الطفل أن نصل رأساً إلى لاشعوره ، والتعرف على مشكلاته وما يعانيه ، وكذلك التعرف على ميوله واتجاهاته ومدى اهتمامه بموضوعات معينة في البيئة التي يعيش فيها ، وعلاقته بالآخرين سواء في الأسرة أو الرفاق أو الكبار .

ومن ثم فقد لجأ المعالجون النفسيون إلى استخدام الرسوم كوسيلة يمكن من خلالها تحقيق التواصل مع المرضى الذين لا يحسنون التحدث باللغة المنطوقة .. وعلى اعتبار أن الرسم إنما هو لغة يمكن من خلالها إقامة جسر للتواصل بين المريض والمعالج لتبادل الأفكار والمعاني فيما بينهما ، والكشف عن الصراعات الداخلية لدى المريض . إذ أن لدى الإنسان القدرة على أن يحول الأفكار إلى صور بالقدر الذي يمكن فيه أن يحول الصور إلى أفكار وكلمات .

وطبيعي أن يكون استخدام تكنيك الرسم غير مقتصر على الأطفال ، وإنما يمكن استخدامه أيضاً مع الراشدين كأسلوب للعلاج النفسي ، وبخاصة أولئك الذين لا يرغبون في الحديث المباشر عن مشكلاتهم وكذلك الأشخاص الخجولون ، وعلى هذا يكون الرسم أداة مناسبة لإقامة الحوار وتحقيق التواصل مع كل الأشخاص على حد سواء ، حتى أولئك الذين لا يجيدون الرسم . لذا يوصي بعض علماء النفس بترك كراسة رسم إلى جوار المريض في الجلسات العلاجية .

ويعتقد أن الأطفال المتأخرين دراسياً وسيئي التوافق الاجتماعي والانفعالي ، وذوي الاحتياجات الخاصة ، هم في حاجة أكبر للتعبير الفني من الأطفال الأسوياء ، ومن ثم فإنه يمكن أن يكون الرسم أداة قيِّمَة لفهم حالات الطفل الانفعالية . وربما تكون المعلومات عن استخدام وتحليل هذه الرسوم أداة هامة للأخصائيين النفسيين بالمدارس في جهودهم لفهم الحالات الانفعالية لتلاميذهم ، وفي هذا يؤكد العلماء على ضرورة استخدام الفن في علاج الأطفال المضطربين نفسياً ، حيث يمكن لنشاط الفن أن يهيئ هؤلاء الأطفال للاستبصار بالذات .. كما أن الرسوم تعد سجلاً بصرياً ثابتاً للتعرف على مدى تقدم المريض أثناء العلاج ..

ومما يدعم أهمية استخدام الرسم في العلاج النفسي أن هذا النوع من العلاج لا يعتمد على مهارة فنية ، فلا أهمية ولا ضرورة لذلك ، بل على العكس ، فالفنان ذو القدرة الفنية ربما يكون أقل عرضة للتعبير العفوي ، و " ذلة الفرشاة " .

ولقد نوقش استخدام الرسم كأسلوب علاجي للأطفال سيئي التوافق في دراسات عديدة ، وبشكل عام فإن هذه النظرية للعلاج تفترض أن الرسم يعامل على أنه شكل من أشكال التنفيس يعبر من خلاله الطفل عن مشاكله ، ويستند هذا الأسلوب العلاجي إلى منهج التحليل النفسي في البحث عن الصراعات الدفينة في الشخصية ، وعلى اعتبار أن المكبوتات يمكن لها أن تظهر عبر الرسوم بأيسر مما يعبر عنها في كلمات ، ويفترض ذلك أن كل فرد سواء قد تدرب فنياً أو لم يتدرب ، يملك طاقة كامنة لإسقاط صراعاته الداخلية في صور بصرية .

هذا وقد يحدث عندما يطلب من المرضى التعبير بالرسم ، أن يعترض البعض قائلاً بأنه لا يستطيع الرسم ، ولكن لما كان المطلوب هو رسم عادي وليس عملاً فنياً ، فإن الأمر يسهل عليهم . وقد يجد الأطفال صعوبة كبيرة في البداية في الحديث عن مدلولات رسومهم ، إلا أنهم بعد فترة من الاتصال العلاجي يتداعون غالباً للرسوم ويكشفون بذلك عن الكثير مما يفيد في التشخيص والعلاج النفسي .

خالص تحياتي
أد. عادل كمال خضر
E. mail : adelkhedr@fart.bu.edu.eg